الفصل الأول

ابن قتيبة الدينوري

وكتاب الشعر والشعراء

يُعَدُّ ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) أحد كبار النقاد الذين امتطوا صهوة النقد الأدبي بعد محمد بن سلاَّم الجمحي (ت ٢٣١هـ).

وهو إن لم يُصَرِّح في كتابه «الشعر والشعراء بالأخذ عنه (محمد بن سلام الجمحي) إلاَّ أنَّ مخايل مؤلَّف الجمحي طبقات فحول الشعراء تكاد تبرق وراء "الثنايا" في السُّطور وفي أركان الفِقَر والموضوعات. وثمة صفات كثيرة تجمع بين المؤلِّفيْن كما أنَّ هنالك صفاتٍ كثيرةً، تُفَرِّق بينهما أيضاً.

أمّا صفات الجمع بينهما فمنها:

١- كلاهما من علماء الحديث النبوي الشريف والمتتلمذين لكبار علماء الحديث النبوي الشريف.

٢-كلاهما يُؤثر الرواية عَمَّن مضى:

يقول أبو محمد عبدالله بن مسلم: حدثنا سهلُ بن محمد حدثنا الأصمعي، حدثنا كُردين بن مسمع...[١]

---

(١) الشعر والشعراء (ط. دار الثقافة - بيروت) بدون تاريخ، ص٨.

أخبرنا أبو حاتم حدثنا الأصمعي قال...[1]

وتلك طريقة محمد بن سلام الجحمي في سائر كتابه طبقات فحول الشعراء.

٣- وإن كان الجمحي كثير الاعتداد بالتتلمذ للشيوخ في النقد الأدبي وخاصة في مدرسة البصرة دون الاقتصار عليها، فأبو محمد بن قتيبة ينحو النحو ذاته بالتتلمذ لشيوخ النقد الأدبي في مدرسة بغداد دون الاقتصار عليها. أمثلة:

١- فإني رأيت من علمائنا مَنْ...[2]

٢- حدثنا الرياشي[3] عن الأصمعي، قال: هذا أبدع بيت قالته العرب[4]

٣- قال أبو محمد: سمعت بعض أهل الأدب يذكر أنَّ مُقَصِّد القصيد[5]

وقد أجمل أبو محمد بن قتيبة الحاجة إلى التتلمذ والسماع وبخاصة في الشعر قال:

"وكل علم محتاج إلى السَّماع. وأحوجه إلى ذلك علمُ الدِّين، ثم الشعر لما فيه من الألفاظ الغريبة، واللغات المختلفة، والكلام الوحشي، وأسماء

---

(١) الشعر والشعراء ص٩.

(٢) الشعر والشعراء ص١٠.

(٣) الرياشي: العباس بن الفَرَج توفي سنة ٢٥٧هـ.
الشعر والشعراء ص١٢ (الحاشية).

(٤) الشعر والشعراء ص١٢.

(٥) الشعر والشعراء ص ٢٠.

الشجر والنبات والمواضع، والمياه"[1].

٤ – الاعتداد بالذات العلمية:

وأبو محمد بن قتيبة يجاوز في ثقته بنفسه واعتداده بعلمه الجُمحيِّ الذي كان يخالف آراء الأصمعي، والمفضل الضبي وخلف الأحمر بعض الأحيان[2]؛ ففي موضع يقول:

والعجب عندي من الأصمعي، إذ أدخله (شعر المُرَقِّش) في متخيّره، وهو شعر ليس بصحيح الوزن، ولا حسن الرَّويِّ، ولا مُتَخَيَّرَ اللفظ، ولا لطيف المعنى[3].

وفي موضع يقول:

"رأيت علماءَنا يستجيدون معناه (بيت للنابغة الذبياني)، ولست أرى ألفاظه جياداً، ولا مُبَيِّنَةً لمعناه"[4].

ويبلغ أبو محمد بن قتيبة ذروة الاعتداد بالذات حين أعلن المُفَارقة الصارخة لمنهجه النقدي عن ذلك الذي سبق دون تحديد منه ولا تصريح. ولا يَبْعُدُ كثيراً أن يكون محمد بن سلام الجمحي – فليس في النقد قبله غيرُهُ، يقول:

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢٦.

(٢) يطالع كتابنا: محمد بن سلام الجمحي وكتاب طبقات فحول الشعراء، (دار البشير، عمان ١٩٩٨م) الفصل الأول.

(٣) الشعر والشعراء ص١٨.

(٤) الشعر والشعراء ص ص ١٤–١٥.

"ولم أسْلُكْ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له، سبيلَ من قَلَّدَ، أو استحسن باستحسان غيره"[1].

على أنَّه ينبغي التنويه بأنَّ الجمحي لم يكن كثير التقليد، والاستحسان باستحسان غيره دون أن يُعْملَ فكره، أو يتخذ موقفاً واضحاً[2]. على أنَّه ينبغي التنويه أنَّ أساتذة النقد الأدبي الذين كانوا شيوخ الجمحي قد كانوا أعلى كعباً، وأرسخ أصولا، وأَبْسَقَ فروعاً وأغصاناً من شيوخ ابن قتيبة الذين رأى ابن قتيبة بعضهم يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره[3]. ولم يَحْدُث مثل هذه الاختلالات عند أحد من شيوخ الجمحي يستوي في ذلك: يونس بن حبيب، وأبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، وخلف الأحمر، والأصمعي، وأبو عبيدة، والمفضل الضَبِّي. ولم يعب أَحَدٌ اختياراتهم الشعريةَ، ولا ملاحظاتِهم النقدية. فالخروج عن رأي العلماء لا لسبب إلاَّ من أجل المعارضة والخروج ليس حليف الدَّارس الموضوعي أحياناً. وقد وقع ابن قتيبة في النقد الأدبي دون موقع الجمحي بكثير تَخَلُّفاً في الوراء في التذوق النقدي وفي التَّطبيق النقدي – كمثل ما لمحه الدكتور محمد مندور:

---

(١) الشعر والشعراء ص١٠.

(٢) يراجع كتابنا: محمد بن سلام الجمحي وكتاب طبقات فحول الشعراء، الفصل الثالث.

(٣) الشعر والشعراء ص١٠.

"ولهذا قد نستطيع أن نلتمس لابن قتيبة بعض العذر، وإن كنا نراه دون ابن سَلاَّم في ذوقه، ومنهج تأليفه"[1].

أمَّا صفات التَّفريق بينهما، فمنها:

١ـ أكثر محمد بن سَلاَّم الجمحي من التركيز على فحولة الشِّعر، وقوة أسره، والاقتدار عليه، والتَصَرُّف في فنونه بينما تَغَيَّب مِثْلُ هذا التركيز من كتاب الشعر والشعراء.

٢ـ أكثر محمد بن سَلاَّم الجمحي من ذِكْر وجوه الاختلاف بين المدارس النقدية وتقليب وجهات نظرها، ومناقشة حُجَجها، بينما كان ذلك نادراً في كتاب الشعر والشعراء.

٣ـ كان محمد بن سَلاَّم الجمحي شُمولياً في عرضه للتراث الشعري وكانت الصورة الكلية عنده قبل النظرة الجزئية؛ بينما كان ابن قتيبة انتقائياً لم يلتزم بمنهج واضح في التبويب، لا في الزمان، ولا في المكان، ولا في الاقتدار الشِّعري.

٤ـ كانت أولوية الاختيار عند الجمحي هي الفحولة الشعرية بينما كان التركيز عند ابن قتيبة على «المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جُلُّ أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النَّحو، وفي كتاب الله عَزَّ وجَلَّ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم"[2].

---

(١) النقد المنهجي عند العرب (دار نهضة مصر القاهرة). بدون تاريخ ص ٢٧.

(٢) الشعر والشعراء ص ٧.